

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين .

والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب . ولم يجعل له عِوَجًا . قِيمًا لينذر بأسًا شديدًا مِّنْ لَّدُنْهُ . ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ما كثين فيه أبدًا .

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيدًا . محمد رسول الله . والذين معه أشِدَّاءُ على الكفار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . تراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا . سِيَاهُمْ فِي وجوههم من أثر السجود . بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

أشهد أن لا إله إلا الله . وحده لا شريك له . أسبغ النعمة . وأجزل المنة . بما وإلى على عباده من رحماته . وبما أقام لهم على مفارق الطرق من واضح آياته . وبما هداهم به إلى التي هي أقوم - في العقيدة ، والشرعة ، والعلم ، والعمل - من محكم كتابه وآياته . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة . وإن الله لسميع عليم .

وأشهد أن أفضل خلق الله ، وأهداهم إليه سبيلا ، وأثبتهم على الصراط

المستقيم قدماً ، وأحقهم بالإمامة والقدوة ، وأجدرهم بالاتباع : عبد الله الكريم ورسوله العظيم ، محمد الصادق الأمين . صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، الذى اختاره الله واصطفاه - (والله أعلم حيث يجعل رسالته) - ليكون خاتم المرسلين ، وإمام السابقين الآخرين . وأنزل عليه الكتاب المبين . ليبينه للناس ، ويهديهم به إلى صراط العزيز الحميد . فبلغ الرسالة أحسن البلاغ ، وأدى الأمانة خير الأداء ، وجاهد فى الله حق جهاده ، حتى أتاه اليقين ، ورفع الله إلى الرفيق الأعلى ، وقد ترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، وأكد لهم النصيحة الخالصة - وبالاخص قبيل وفاته - إذ قال « عليكم يستنى سنة الخلفاء الراشدين من بعدى . تمسكوا بها ، وعصوا عليها بالنواجز ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » وقد عرف صلى الله عليه وسلم العلل والأدواء التى أهلكت الأمم الماضية ، فحرفهموها أشد التخويف ، وحذرهموها أشد التحذير ، ووصف لهم الدواء الشافى من ذلك . وتلا عليهم قول ربه فى محكم كتابه (فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً) . وزادهم تأكيداً فقال « تركت فىكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله ، وسنتى » فكان الرعيل الأول من هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، من جميع أهل الأرض - عربهم وعجمهم ، يهودهم ومجوسهم ونصرانيهم - إذ كانوا بالعلم الصحيح - من كتاب الله ، وبيان هدى رسوله صلى الله عليه وسلم - أبر الناس أقوالاً وأعمالاً ، وأخلاقاً ، وأحوالاً فعاش الناس فى كنفهم فى عدل ورحمة ورخاء عيش ، وأمن على الأنفس والأموال والأعراض ، ما كانوا يجدونها ، ولا بعضها ، عند أهل دينهم فى عصرهم الأولى . وما كان ذلك لميزة فى زمانهم ، ولا مكانهم ، ولا أنسابهم وأجسامهم ، وإنما كان : لأنهم آمنوا بالله وكتابه ورسوله صادقين ، وأخذوا طريقهم فى كل شأن من شئون

الحياة على ضوء هذا الإيمان وهده ، على بصيرة من ربهم ، وثقة به متؤمنين . لا يصدرون ولا يردون إلا عنه ، واثقين من أن هذه الرسالة الخامسة والتممة لما قبلها : إنما تفضل بها الله ربهم لخيرهم ، وتسديد خطواتهم في حياتهم الأولى ، ليتبوءوا أعلى مكان العزة والحياة الكريمة ، فيصلحوا ما أفسد الناس ، ويقوموا ما أزال الناس ، ويأخذوا على أيدي الظالمين لأنفسهم . فيضعوهم على المحجة ، ويدفعوهم بالعلم الصحيح ، والعقيدة النقية ، والعمل الصالح ، والنفس الزكية والسمت الصالح ، على بصيرة : في سبيل الحياة (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني . وسبحان الله ! وما أنا من المشركين) .

ومن ثم أحياهم الله أطيب حياة وأسعدها . وكان النجاح والنصر في كل شأن ، وأينما توجهوا حليفهم ، إذ كانوا مع الله ، فكان الله معهم (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

ثم خلف من بعدهم خلف أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، أخذوا عرض هذا الأدنى ، وشغلوا به . وأخلدوا إلى أرض الأهواء والشهوات ، منسلخين من آيات ربهم ، في أنفسهم وفي الآفاق . إذا ذُكِّروا لا يذكرون . وإذا نُصِّحوا لا ينتصِّحون ، ويقولون - مغرورين بأسمائهم ، وصورهم ، ووراثاتهم التقليدية - إن الله سيغفر لنا (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ؟ ودرسوا ما فيه . والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ، والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة . إنا لانضيع أجر المصلحين) .

اللهم أصلح عقائدنا ، وقلوبنا وأعمالنا وأحوالنا . وهذب أخلاقنا . وأصلح ولاية أمورنا . وأدبنا بأدب العبد الكريم رسولنا ، وقوِّم إليك يارب طريقنا ، واهدنا بهدى إمام المهتدين ، عبدك ورسولك الذي اصطفيته وعصمته ، وأرسلته رحمة للعالمين . واخترتة إماماً للمهتدين ، محمد عليه منك أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وبعد : فهذا كتاب :

الْإِنْصَافُ

فِي مَعْرِفَةِ الرَّاجِحِ مِنَ الْخِلَافِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الْمُجْتَلِ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ

الذي طالما تمنى علماء الحنابلة - بل وغيرهم - من كل بلد وعصر : أن يسر الله الوصول إليه ، بطبعه ، وتكثير نسخه وتوفيرها ، ليسهل الحصول عليه ، وتدنو ثماره من أيدي المتلهفين عليها . وإنه لجدير بلهفة أولئك الطالبين الراغبين ، وحقيق يحرص علماء الحنابلة - وغيرهم - من المتفقهين ، وجهابذتهم الحققة . فقد ضم بين دفتيه كل ما قيل في المذهب الحنبلي من أقوال ووجوه وروايات ، وأحصاها أدق إحصاء ، يدل على حافظة نادرة جداً ، وقوة استحضار فذة . تجعله معلمة حنبلية ، لعلها تغني مقتنيها عن غيره من المختصرات والمطولات . فلقد سلك فيه مسلكاً لم يسبق إليه . بين فيه الصحيح من المذهب ، وأطال فيه الكلام . وذكر في كل مسألة ما نقل فيها من الكتب . وكلام الأصحاب ، من المتقدمين والمتأخرين ، إلا أنه قلما تعرض للدليل . لأن كل همه كان موجهاً إلى الجمع والإحصاء لكل ما قيل في المسألة . وهي مهمة شاقة تستوعب المجهود العظيم . فهو من الكتب التي تبذل فيها نفائس الأموال . ولا غرو فمؤلفه هو الإمام :

علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي

قال أبو الفلاح عبد الحى بن العباد الحنبلي ، مترجما له في كتابه « شذرات

الذهب » (ج ٧ ص ٣٤٠) في وفيات سنة ٨٨٥ .

وفيها : علاء الدين ، أبو الحسن علي بن سليمان بن أحمد بن محمد المرداوي ،

(س)

السعدى . ثم الصالحى ، الحنبلى . الشيخ الامام ، العلامة المحقق ، المتفنن ، أمجوبة الدهر . شيخ المذهب وإمامه ، ومصححه ومنقحه ، بل شيخ الإسلام على الاطلاق ، ومحرر العلوم بالاتفاق .

ولد سنة سبع عشرة وثمانمائة . وخرج من بلده « مردا » فى حال الشيبة . فأقام بمدينة الخليل عليه الصلاة والسلام ، بزاوية الشيخ عمر المجرى . رحمه الله . وقرأ بها القرآن .

ثم قدم إلى دمشق . ونزل بمدرسة شيخ الإسلام أبى عمر ، بالصالحية . واشتغل بالعلم . ولاحظته العناية الربانية . واجتمع بالمشايخ . وجدَّ فى الاشتغال وتفقه على الشيخ تقي الدين بن قندس البعلى ، شيخ الحنابلة فى وقته . فبرع ، وفضل فى فنون من العلوم . واتمته إليه رياسة المذهب .

وباشر نيابة الحكم دهرًا طويلا . فحسنت سيرته . وعظم أمره . ثم فتح عليه فى التصنيف . فصنف كتباً كثيرة فى أنواع العلوم . أعظمها « الانصاف فى معرفة الراجح من الخلاف » أربع مجلدات ضخمة . جعله على « المقنع » وهو من من كتب الإسلام .

فانه سلك فيه مسلكاً لم يسبق إليه . بين فيه الصحيح من المذهب . وأطال فيه الكلام . وذكر فى كل مسألة ما نقل فيها من الكتب . وكلام الأصحاب .

فهو دليل على تبحر مصنفه ، وسعة علمه ، وقوة فهمه ، وكثرة اطلاعه .

ومنها « التنقيح المشبع ، فى تحرير المقنع » وهو مختصر الانصاف .

ومنها « التحرير » فى أصول الفقه . ذكر فيه المذاهب الأربعة ، وغيرها

وشرحه .

وجزء فى الأدعية والاوراد . سماه « الحصون المعدة ، الواقعة من كل شدة »

وتصحيح كتاب « الفروع » لابن مفلح .

(ع)

وشرح الآداب . وغير ذلك .
وانتفع الناس بمصنفاته . وانتشرت في حياته و بعد وفاته .
وكانت كتابته على الفتوى غاية . وخطه حسن .
وتنزه عن مباشرة القضاء في أواخر عمره . وصار قوله في المذهب يعول
عليه في الفتوى والأحكام ، في جميع مملكة الإسلام .
ومن تلامذته : قاضي القضاة : بدر الدين السعدى . قاضى الديار المصرية .
وغالبُ من في المملكة من الفقهاء ، والعلماء ، وقضاة الإسلام .
وما صحبه أحد إلا وحصل له الخير .
وكان لا يتردد إلى أحد من أهل الدنيا . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان
الأكابر والأعيان يقصدونه لزيارته ، والاستفادة منه .
وحج . وزار بيت المقدس مراراً .
ومحاسنه : أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر .
وتوفى بصاحلية دمشق يوم الجمعة ، سادس جمادى الأولى . ودفن بسفح
قاسيون . قرب الروضة .

* * *

وقال العلامة المؤرخ الناقد ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى في
كتابه « الضوء اللامع ، لأهل القرن التاسع » (ج ٥ ص ٢٢٥ - ٢٢٧) .
على بن سليمان بن أحمد بن محمد ، العلاء المرداوى ، ثم الدمشقى ، الصالحى ،
ويعرف بالمرداوى . شيخ المذهب .
ولد قريباً من سنة عشرين وثمانمائة بمردا ، ونشأ بها .
فحفظ القرآن ، وأخذ بها فى الفقه عن فقيها الشهاب أحمد بن يوسف .
ثم تحول منها وهو كبير إلى دمشق . فنزل مدرسة أبى عمر . وذلك - فيما أظن -
سنة ثمان وثلاثين ، فجود القرآن ، ويقال : إنه قرأه بالروايات . فإله أعلم .

(ف)

وقرأ « المقنع » تصحيحاً على أبي الفرج عبد الرحمن بن إبراهيم الطرابلسي الحنبلي . وحفظ غيره ، كالألفية . وأدمن الاشتغال .

وتجرع فاقة وتقللاً . ولازم التقى ابن قندس في الفقه وأصوله ، والعربية وغيرها . حتى كان جُلُّ انتفاعه به .

وكان مما قرأه عليه بحثاً وتحقيقاً « المقنع » في الفقه . و « مختصر الطوفي » في الأصول . وألفية ابن مالك .

وكذا أخذ الفقه والنحو عن الزين عبد الرحمن أبي شعر ، بل سمع منه التفسير للبغوي مراراً . وقرأ عليه في سنة ثمان وثلاثين من شرح ألفية العراقي إلى « الشاذ » . وأخذ علوم الحديث أيضاً عن ابن ناصر الدين . سمع عليه منظومته وشرحها بقراءة شيخه التقى .

والأصول أيضاً عن أبي القاسم النويري ، حين لقيه بمكة في سنة سبع وخمسين . فقرأ عليه قطعة من كتاب ابن مفلح فيه ، بل وسمع في العضد عليه .

وأخذ الفرائض ، والوصايا ، والحساب عن الشمس السبلي الحنبلي ، خازن الضيائية . وانتفع به في ذلك جداً . ولازمه فيه أكثر من عشر سنين ، بل وقرأ عليه « المقنع » في الفقه بتمامه بحثاً .

وأخذ العربية والصرف وغيرها من أبي الروح عيسى البغدادى الفلوجي ، الحنفي ، نزيل دمشق .

والحسن بن إبراهيم الصفدي ، ثم الدمشقي ، الحنبلي الخياط وغيرها .

وقرأ البخاري وغيره على أبي عبد الله محمد بن أحمد الكركي الحنبلي .

وسمع الزين بن الطحان . والشهاب بن عبد الهادي وغيرها .

وحج مرتين . وجاور فيهما .

وحضر دروس البرهان بن مفلح ، وناب عنه

وكذا قدم بأخرة إلى القاهرة ، وأذن له قاضيها العز الكناني في سماع

الدعوى ، وأكرمه . وأخذ عنه فضلاء أصحابه بأشارته ، بل وحضهم على تحصيل « الإنصاف » وغيره من تصانيفه ، وأذن لمن شاء الله منهم .

وقرأ هو حينئذ على الشئى ، والخصنى « المختصر » .

وقرأ فى الفرائض والحساب يسيرا على الشهاب السجيني .

وحضر دروس القاضى . ونقل عنه فى بعض تصانيفه واصفاً له بشيخنا .

وتصدى - قبل ذلك وبعده - للإلقاء ، والافتاء ، والتأليف ببلده وغيرها . فانتفع به الطلبة . وصار فى جماعته بالشام فضلاء .

ومن أخذ عنه فى مجاورته الثانية بمكة : قاضى الحرمين المحيوى الحسينى الفاسى ومن تصانيفه (الانصاف فى معرفة الراجح من الخلاف) .

عمله تصحيحاً للمقنع ، وتوسع فيه حتى صار أربعة مجلدات كبار . تعب فيه . واختصره فى مجلد سماه « التنقيح المشبع ، فى تخرج أحكام المقنع » و « الدر المنتقى والجوهر المجموع فى معرفة الراجح من الخلاف المطلق فى الفروع » لابن مفلح فى مجلد ضخم . بل اختصر « الفروع » مع زيادة عليها فى مجلد كبير . و « تحرير المنقول فى تهذيب - أو تمهيد - علم الأصول » أى أصول الفقه فى مجلد لطيف . وشرحه . وسماه « التعبير فى شرح التحرير » فى مجلدين . وشرح قطعة من مختصر الطوفى فيه .

وكذا له فهرست القواعد الأصولية فى كراسة . و « الكنوز - أو الحصون - المعدة ، الواقعة من كل شدة » فى عمل اليوم والليلة وقال : إنه جمع فيه قريباً من ستمائة حديث . منها الأحاديث الواردة فى اسم الله الأعظم . والأدعية المطلقة الماثورة . قال : إنه جمع منها فوق مائة حديث .

و « المنهل العذب الغزير ، فى مولد الهادى البشير النذير » .

وأعانه على تصانيفه فى المذهب : ما اجتمع عنده من الكتب مما لعله انفرد به ملكاً ووقفاً

وكان فقيهاً حافظاً لفروع المذهب . مشاركاً في الأصول ، بارعاً في الكتابة بالنسبة لغيرها . متأخراً في المناظرة والمباحثة . ووفور الذكاء ، والتفنن عن رفيقه الجراعى . مديماً للاشتغال والإشغال . مذكوراً بتعفف ، وورع ، وإيثار في الأحيان للطلبة . متنزها عن الدخول في كثير من القضايا ، بل ربما يترك أصلاً . فلا يُمكنه القاضى ، متواضعاً منصفاً . لا يأنف ممن يبين له الصواب - كما بسطته في محل آخر - وقد نزع عن بلده فاصداً الديار المصرية ، إجابة لمن حسَّنه له ، إما ليكون قاضياً ، أو مناكداً للقاضى في الجملة ، أولئش المذهب وإحيائه . فعاق عنه المقدور . فإنه حصل له مرض وهو يجب يوسف . وعرج من أجله إلى صفد . فتعلل بها يسيراً . وعاد إلى بلده . فنصل منه . وأعرض حينئذ عن النيابة بالكلية . وذلك قبل موت البرهان بن مفلح بيسير ، إما لتعلق أمه بأرفع منها ، أو لغير ذلك .

وعلى كل حال : فقد استعمل بعد موته ممن لعله فهم عنه رغبة ، حتى كتب بالثناء على النجم ولد البرهان ، بحيث استقر بعد أبيه . ولعل قصده كان صالحاً . وعلى كل حال : فقد حاز رئاسة المذهب . وراج فيه أمره مُديدةً . وذكر بالانفراد . خصوصاً بعد موت الجراعى . ثم القاضى .

واستمر على ذلك حتى مات في جمادى الأولى سنة خمس وثمانين بالصالحية . ودفن بالروضة . رحمه الله وإيانا .

هذا ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للسداد والمعونة على ما يجب ويرضى . وصلى الله عليه وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين .